هل تراجعت ثقافة المقاومة ... ولماذا؟

د. أكرم محمد رضوان

مركز غزة للدراسات والاستراتيجيات

غزة – فلسطين

1439هـ - 2017م

كلمة رئيس الأكاديمية

ثقافة المقاومة خزان الثقة والأمل الذي لا ينضب في مواجهة معركة الاستئصال والاستيطان والتهجير، ولا تنحصر في فكر أو منهج أو طريقة، وإنما سلوك إنساني فطري أبدع الشعب الفلسطيني في تقديم نموذج فذ فريد فيه، عبر ترجمته إلى سلوك شعبي مقاوم لم تهزمه لأواء ومعاناة المراحل المتعاقبة.

إنهاء الانقسام جذرياً وإبرام مشروع وطني يمثل استراتيجية عمل موحدة تعزز ثقافة المقاومة، حفاظاً على الهوية الوطنية، عبر تظافر كافة الجهود والمؤسسات والأفراد في بوتقة جامعة، ولا ينفصل ذلك عن صناعة الوعى لأجيال الشعب الفلسطيني، مما يشكل ضمان ديمومة المقاومة عبر ثقافتها الواعية.

وفي المقابل إفشال مؤامرات سقوط ثقافة المقاومة ومشاريع التدجين وتصفية القضية الفلسطينية، وذلك عبر منهجية الفضح والمواجهة، وما يلزم ذلك من مقومات الصمود والثبات.

نتقدم بالشكر إلى د. أكرم رضوان الذي يقدم عبر مركز غزة ورقته البحثية للإجابة على سؤال رئيس يتمثل في تراجع ثقافة المقاومة وانسياب ذلك وطرق العلاج والاستدراك.

والله ولي التوفيق

د. محمد ابراهيم المدهون

رئيس أكاديمية الإدارة والسياسة للدراسات العليا

المحتويات

كلمة رئيس الأكاديمية..... ب

مقدمة:..... 4

بين ثقافة المقاومة وثقافة الاستسلام... 5

أشكال المقاومة الفلسطينية..... 6

تراجعات ثقافة المقاومة..... 8

لماذا تراجعت ثقافة المقاومة ؟؟ 10

النتائج والتوصيات..... 13

التوصيات والمقترحات الإجرائية:..... 13

المراجع 15

هل تراجعت ثقافة المقاومة.. ولماذا؟

مقدمة:

المقاومة ليست هدفا في حد ذاتها، ولكنها وسيلة لتحقيق أهداف الشعوب التي ترزخ تحت الاحتلال أو الاستعمار للحرية والاستقلال. إن الاحتلال في حقيقته وجوهره هو عملية ثقافية، ومن ثم فإن مقاومته هي في الأساس عملية ثقافية مضادة، تسعى لتشكيل ثقافة بديلة، لأن الهزيمة في الأصل ليست عملية عسكرية، ولكنها قبول المغلوب بالهزيمة، ولذلك يقال دائما إن المغلوب لا الغالب هو الذي يحدد نهاية المعركة. فحين يكون احتلال فلا بد من وجود مقاومة، وحين يكون ثمة ثقافة احتلال مصاحبة فلا بد من وجود ثقافة مقاومة، وهي ثقافة راسخة وحاضرة دائما في التراث والتجارب العربية والإسلامية. وفي مقدمة كتابه بعنوان "ثقافة المقاومة" أوضح د. حسن حنفي "بأن المقاومة ليست بالسلاح وحده، فتلك وظيفة الجيوش النظاميّة والمقاومة الشعبية...إنما بالفكر والثقافة أيضاً [1]. ذلك أن مقاومة الاحتلال لا تكون ولا تنجح إلا في حالة ثقافية عامة قائمة على الحرية والاستقلال.

ولقد حفلت تجارب التحرر الوطني بمفارقة تاريخية تتعلق بثقافتين عملتا جنباً إلى جنب: ثقافة المقاومة ورفض الخنوع، وثقافة الاستسلام والقبول بالأمر الواقع. فالتيار الأول يرفع شعاراته الثورية، ويتخذ من الفعل المقاوم طريقا لتحقيق التحرير والاستقلال، يقابله تيار آخر يرفع شعاراته السلمية ويسلك طريق التفاوض والقبول بالمحتل (جزئياً أو كلياً)، ويعتبره طريقاً للاستقلال والتنمية[2].

وقد أثبت التاريخ أن طريق التيار الثاني نادرا ما أوصل البلدان والشعوب إلى أهدافها في التحرر والسيادة والاستقلال فضلاً عن التنمية الاجتماعية والازدهار الاقتصادي، بل أثبت التاريخ أن هذا الطريق لم يقد إلا نحو الهزيمة وضياع الأوطان ومستقبل الأمم، لأنه في الأساس بُني على ثقافة الهزيمة والرضوخ لمعايير القوة وحسابات الربح والخسارة من منظور فئوي ضيق، يتعلق بجماعة حزبية أو إثنية أو طائفية.. لكنه لم يتعلق في وقت من الأوقات بمنظور تاريخي لمصلحة الأمة وحقها في تقرير مصيرها، وبالتالي حصولها على سيادتها واستقلالها[3]. وتجربتنا العربية في مقاومة الاحتلال عموماً، والفلسطينية خصوصاً، وقعت في نفس المفارقة والتناقض بين ثقافتين: ثقافة المقاومة وثقافة الاستسلام، فتتقدم أحدهما أحيانا وتتراجع الأخرى في المقابل، وذلك مرتبط بعوامل كثيرة منها داخلية وخارجية. ولأن المقاومة الفلسطينية تعتبر ثابتاً من الثوابت وحقاً مشروعاً من الحقوق الفلسطينية طالما يوجد احتلال، فان التراجع في شيوع ثقافة المقاومة يمثل خطرا على القضية والوجود الفلسطيني ككل. لذا فان الواجب الوطني يستدعي الوقوف على التراجعات الحاصلة ودراسة الأسباب التي قادت لتلك التراجعات، ومن ثم محاولة ايجاد الحلول التي تعزز من نشر ثقافة المقاومة في المجتمع الفلسطيني.

تمحورت مشكلة الدراسة في تحديد فترات التراجع في ثقافة المقاومة، والبحث عن الأسباب الموضوعية لهذا التراجع، وما المطلوب فلسطينيا وعربيا واسلاميا لتعزيز هذه الثقافة لتظل حية في نفوس الأجيال القادمة ما دام الصراع مع الصهاينة مستمراً.

---

[1] حنفي، حسن، 2004: ثقافة المقاومة، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان.
[2] أبو ديكار، أسامة، 2009: حرب غزة بين ثقافة المقاومة وثقافة الهزيمة، موقع دنيا الوطن، بتاريخ 07-03-2009.
[3] أبو ديكار، أسامة، 2009، مرجع سابق.

وتكمن أهمية البحث أنه تطرق لموضوع هام لم يسبق أن عولج من قبل باحثين وفقا لعلمنا، ويأتي هذا البحث للفت الانتباه وتوجيه الأنظار لظاهرة خطيرة متمثلة في تراجع ثقافة المقاومة ودراسة تأثيرها على مسار الصراع مع الصهاينة. كما يعتبر البحث أيضا مساهمة في ترسيخ وتعزيز ثقافة المقاومة في المجتمع الفلسطيني.

بين ثقافة المقاومة وثقافة الاستسلام...

قبل ان ندخل في التعريفات نشير بداية إلى مفهوم الثقافة عموماً هي "ما تراكم في الذاكرة واختزنته دونما قصد من علوم ومعارف وخبرات وعادات وتقاليد وأخلاقيات شكلت وعي الفرد وقناعاته وأرائه، ووجهات نظره ومواقفه في الحياة والمجتمع والكون"[1]. وكما ينطبق هذا التعريف على الذاكرة الفردية ينطبق أيضاً على الذاكرة الجماعية. أما "المقاومة" فهي رد فعل طبيعي على إغتصاب الأرض الفلسطينية من قبل الاحتلال، تستمد مشروعيتها وحقها في الاستمرار من استمرار جرائم الاحتلال، وهي أيضاً حق مشروع تكفله الشرائع السماوية والقانون الدولي والمواثيق الإنسانية. وعندما تذكر كلمة "المقاومة" فإننا لا نقصرها فقط على المقاومة المسلحة، بل المقاومة بكل أشكالها المختلفة، فهناك المقاومة السياسية، والمقاومة الاقتصادية والمقاطعة وغيرها.

ومن هنا يمكننا تعريف **ثقافة المقاومة** "بأنها حالة وخبرة تحياها الأمم النبيلة الحية، التي تتصدى للبغي والعدوان، ولذلك فهي تنهض في وجه التحديات عبر مختلف وسائل ومستويات المواجهة، من أبسط آليات وأدوات الكفاح، إلى التحليل الإستراتيجي الثاقب الذي يعطي كفاح الأمم مساراً ورؤية ومعنى"[2]، وبالتالي فان ثقافة المقاومة هي حالة استنهاض إنساني تتوجه ضد كل اعتداء على الإنسانية؛ ضد الاحتلال والاستيطان... وهذا التعريف يقودنا إلى نقطة لا يدركها الكثيرون، أن شعارات الأمة في الوحدة والحرية والعدالة الاجتماعية، ليست من قبيل المكابرة أو (الجعجعة) الشعاراتية، وإنما هي الطموحات الراسخة داخل الوجدان الشعبي، التي لا يجوز القفز عنها أو التلاعب بها، لأنها أكبر من المتغيرات التكتيكية أوالمؤقتة التي تتعرض لها الأمة[3].

في حين لو أردنا تعريف **ثقافة الاستسلام** أو الهزيمة لقلنا إنها "ثقافة القبول بالأمر الواقع، وثقافة السعي إلى مكاسب تكتيكية ومباشرة على حساب مكاسب الأمة الإستراتيجية وعلى حساب مصير أبنائها وأجيالها القادمة"[4]، وهي الثقافة القائمة على الفصل في تاريخ الأمة بين ماضيها وحاضرها، وبالتالي جعل المستقبل في مهب الريح، ومهب المتغيرات الدولية والإقليمية، ولا شك أنها الثقافة التي يقودها تيار يدعو إلى التفاوض والسلام دون النظر إلى ماهية هذا السلام. ومن المعلوم أن الولايات المتحدة ومن يسير في ركبها من دول العالم هم منذ يعمل على نشر هذه الثقافة لدى الشعوب الفقيرة والمضطهدة والتي تعرضت للاحتلال وسلبت أراضيها وحقوقها، كما تبذل قصارى جهدها مع النخب الحاكمة وقادة تلك الشعوب لتعميم ثقافة الهزيمة، وجعلها هي الثقافة السائدة، وتستخدم في سبيل تحقيق هذا الهدف وسائل الاغراء بالمال والمناصب والدعم السياسي وغسيل الدماغ.

---

[1] صادق ، عوني، 2008: ثقافة المقاومة، محاضرة عقدت ضمن فعاليات أسبوع إحياء ذكرى ستينية النكبة، بتاريخ 2008/05/12.
[2] السنوار، زكريا، 2009: أسس ثقافة المقاومة، بحث مقدم إلى مؤتمر نحو تعزيز ثقافة المقاومة، المنعقد في 10-2009/7/13م، وزارة الثقافة، غزة، فلسطين.
[3] الأحوازي، معمر، 2010: قراءة نقدية في ثقافة المقاومة وثقافة الاستسلام الأحوازية.
[4] الأحوازي، معمر، 2010، مرجع سابق.

أشكال المقاومة الفلسطينية

تعددت وتطورت اشكال المقاومة الفلسطينية لقوات العدو الصهيوني، ومرت بعدة مراحل:

أولا: المقاومة السلمية أو الناعمة

ويقصد بها الاحتجاجات الناعمة ضدّ ممارسات الاحتلال مثل النشاطات الدورية ضدّ الجدار العازل، ونشاطات مقاطعة منتجات المستوطنات، وغيرها من الفعاليات الرمزية التي لا تؤخذ صفة الديمومة، وتتجنب قدر الإمكان الاحتكاك مع جنود الاحتلال [1].

ثانيًا: المقاومة الشعبية

هي المقاومة التي تخوضها جماهير الشعب الفلسطيني بشكل منظم، ولكن ليس على أسس فصائلية، حيث تقوم أساسًا على المشاركة الجماهيرية وليس على مشاركة الفصائل، دون أن يعني ذلك تغييب دور الفصائل في الحشد والتعبئة والتنظيم [2].

ثالثًا: المقاومة المسلحة

ويقصد بها مقاومة الاحتلال عبر الطرق المسلحة، على اختلاف طبيعة ومدى التسليح، ويتميز هذا النوع من المقاومة بسيطرة الطابع الفصائلي، لذلك فإن الفصائل المقاومة هي الأقدر على تنظيم المسلحين وتدريبهم وقيادة تحركاتهم، وتأمينهم بالسلاح، وتغطية مقاومتهم سياسيًا وأمنيًا وإعلاميًا [3]. فيبدأت هذه المقاومة بالسلاح البسيط من سكين ومسدس، تطورت الى سلاح آلي وقنابل، لتصل الى مرحلة العمليات الاستشهادية وتصنيع الأحزمة الناسفة مع بداية الانتفاضة الثانية، والتي فرضت نوعا من توازن الرعب مع الاحتلال، واستطاعت أن ترفع نسبة الخسائر البشرية والمادية عن الاحتلال [4].

ثم رفعت المقاومة من قدراتها لتصل الى مرحلة الصواريخ والتصنيع العسكري، وإن كان بوسائل أولية غير متطورة، إلا أنها قفزت وفي وقت قليل إلى مستويات مؤثرة، فثمة تصنيع للعبوات الناسفة والقنابل وقاذفات الأربيجي، وإنتاج نسخة خاصة من العوزي الإسرائيلي، وفي ذروة ذلك تقنية تصنيع الصواريخ التي وصل مدى بعضها الى 200 كم. وبالتوازي مع ذلك استطاعت المقاومة ادخال كميات كبيرة من السلاح عبر أنفاق قطاع غزة خصوصا بعد انطلاق الثورات ما سمي بالربيع العربي.

[1] اشتيوي، بثينة، 2015: لماذا تضعف المقاومة الفلسطينية في الضفة المحتلة؟، موقع ساسة بوست، بتاريخ 17-08-2015.
[2] اشتيوي، بثينة، 2015، مرجع سابق.
[3] اشتيوي، بثينة، 2015، مرجع سابق.
[4] شلهوب، فرج، 2010: المقاومة الفلسطينية مراحل التطور وافاق المستقبل، مجلة البيان.

كيف نشأت ثقافة المقاومة:

لقد ولدت أجيال عديدة من الفلسطينيين وتربت وعاشت وعايشت بشكل يومي ولعقود طويلة صنوفا من التآمر والعدوان، ورأت بأم عينها كيف كانت تنفذ مؤامرة اغتصاب الوطن، وعاش معظم شعبنا مرارة التهجير والطرد، وجزء آخر عاش تجربة الشتات والغربة وما زال، وجزء ثالث عاش تجربة الخضوع للاحتلال وموروست عليه كل أشكال الظلم والقتل والاعتقال ولا يزال. وكل ذلك تحقق للمغتصب والمحتل بالقوة المسلحة وبكل أشكال القوة الأخرى، وبالتالي من الطبيعي أن يكون للشعب الفلسطيني في هذه الفترة الطويلة ردود فعل متوقعة، فكانت الانتفاضات والثورات المتتالية سمة بارزة في حياة شعبنا حتى أصبحت المقاومة والفعل الجهادي جزءا من ثقافته العامة[1].

وبالتالي يمكن القول أن سلوك الكيان الصهيوني حتى قبل تأسيسه على أرضنا في أيار 1948 وعلى مدى السنوات الماضية تعتبر أسبابا كافية لترسيخ القناعة لدى أبناء الشعب الفلسطيني بأن "ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة". وهكذا نشأت المقاومة في ضمير الشعب وثقافته منذ صدور وعد بلفور، وفي فترة الانتداب البريطاني، فمن انتفاضة 1920 إلى انتفاضة 1929 المعروفة بانتفاضة البراق، وصولا إلى ثورة الشهيد الشيخ عز الدين القسام في العام 1935، إلى الإضراب الكبير فالثورة الكبرى في العام 1936، إلى عمليات المقاومة المسلحة التي شهدتها فلسطين في فترة 1945-1948. ولم تتوقف كذلك عمليات المقاومة المسلحة بعد 1948، بل توسعت بعد الغارة الإسرائيلية على قطاع غزة في شباط 1955. ولم تنقطع العمليات الفدائية حتى أعلنت حركة فتح عن أول عملياتها الرسمية في الأول من كانون الثاني 1965. ثم أخذت المقاومة منحى مختلفاً وظهرت أطرافاً جديدة دخلت الى ساحة النزال مع انطلاقة الانتفاضة الأولى في العام 1987 وأصبحت فيه حركتا حماس والجهاد الاسلامي رأس حربة في مقاومة الاحتلال في فلسطين. هكذا يمكن القول أنه على مدى قرن كامل لم تتوقف المقاومة الفلسطينية بكل أشكال المقاومة، ولم تتخلف فئة اجتماعية واحدة من فئات الشعب الفلسطيني عن المشاركة في شكل أو أكثر من أشكالها. أما الانتفاضة الثانية في العام 2000 فكانت مؤشر على أن معين الشعب لا ينضب. فكيف يستقيم قول البعض بأن المقاومة ليست جزءا من ثقافة الشعب الفلسطيني؟![2].

إن ثقافة المقاومة تعبر عن حالة نضالية واخلاقية تمثلت في وعي المقاومين، ونمط ثقافي سلوكي مبدأه الدفاع عن النفس والكرامة والوجود والارض والتاريخ والتراث والجغرافيا والانتماء والهوية، حيث تجلت خصوصية المقاومة في نسيج مجتمعي، وانتجت حالة شعبية أنجزت تغييرا في البنية الاجتماعية الطبقية، مما وفر لهذه الثقافة دعما شعبيا وعمقا عربيا.

[1] رضوان، أكرم، 2009: ثقافة المقاومة بين التقدم والتراجع، ورقة عمل مقدمة إلى مؤتمر نحو تعزيز ثقافة المقاومة والذي عقد بتاريخ 10-2009/7/13 ،وزارة الثقافة، غزة، فلسطين.

[2] رضوان، أكرم، 2009، مرجع سابق.

تراجعات ثقافة المقاومة

التراجع الأول ظهر مع قدوم السلطة الفلسطينية بعد اتفاق أوسلو

لسنوات طويلة سُمم العقل العربي بفرضيات ونظريات مهزومة تقول إنه على المقاتل العربي أن يلقي سلاحه وأن يهيئ نفسه لواقع جديد ينفتح على مشهد "السلام" بعد أن أثبتت الوقائع أن دولة الاغتصاب المدعومة من الغرب وأميركا غير قابلة للهزيمة، وبدأ الترويج لهذه النظريات ينشط أكثر وأكثر بعد توقيع اتفاقية كامب ديفيد. وأخذت هذه النظريات تطرح وبشكل علني أن دولة الكيان أصبحت واقع، وإنهاءه والقضاء عليه بات مستحيل، وأن التجارب تؤكد أنه لا جدوى من تعبئة الشارع والقفز عن الحقائق.. فالموازين ليست لصالحنا وسنبقى ندور في دائرة الضعف والتراجع، ولا بد من التراجع عن اللاءات التي كنا نرفعها، والطريق الوحيد هو أن نقبل بما هو مطروح علينا حتى لا يفوتنا القطار[1].

ومن ثم انتقلت هذه العدوى من الطرف العربي الى الجانب الفلسطيني، وبدأ يلحظ بوضوح تراجع مكانة المقاومة، كفكرة وكأسلوب نضال، وبدأت تخرج "نظريات" جديدة مفادها أن مشروع المقاومة الفلسطينية المسلحة قد أضحى بلا جدوى، وأنه ربما أصبح عبئا على النضال الوطني الفلسطيني، بحيث أصبح معه من الأفضل التخلص من هذه المقاومة، وذلك يعود في الأساس وقبل أي شيء، إلى المسار السياسي الذي سلكته قيادة منظمة التحرير الفلسطينية وصولا إلى اتفاق أوسلو وما تلاه، كل ذلك أفسح المجال لثقافة الاستسلام والهزيمة أن تنتشر، هذه الثقافة التي جوهرها ليس سوى اليأس والتيئيس. ولقد أصبح ممكنا أن يطرح أصحاب هذه الثقافة أسئلة كثيرة منها مثلا: ماذا حققت المقاومة للشعب على مدى أكثر من ثلاثين سنة بل على مدى قرن؟ هل حمت أو حررت الأرض؟ هل أقامت الدولة المستقلة؟ هل أعادت اللاجئين؟ ... باختصار، إنهم يقولون: أن مشروع المقاومة الفلسطينية المسلحة قد فشل، وأنه لا فائدة ترجى من المقاومة، والمقاومة المسلحة لم تقدم شيئا لا للشعب ولا للقضية، بل ربما ضيعت الشعب وأضاعت القضية، وبتحليل البيئة التي أفرزت هذه المزاعم والثقافة المشوهة يظهر لنا التالي:

إن المشروع الوطني الفلسطيني بعد النكبة توقف في محطات عديدة هامة، لكن أخطر تلك المحطات كانت ولا شك محطة أوسلو في أيلول 1993 حيث وافقت القيادة الفلسطينية على إسقاط مبدأ المقاومة المسلحة واعتماد أسلوب المفاوضات أسلوبا وحيدا لاسترداد الحقوق الوطنية، علما بأن هذه القيادة كانت قد قبلت "التخلي عن العنف" قبل ذلك بما يقرب من عشرين عاما عندما قبلت (نبذ العنف) كشرط للاعتراف المتبادل بين منظمة التحرير الفلسطينية والكيان الصهيوني[2]. ويعتبر بعض المتابعين أن اتفاق أوسلو يمكن وصفه بالانقسام الأكبر في الساحة الفلسطينية، بحكم أنه وفّر منذ لحظته الأولى أسباباً بنيوية عميقة للتنافر والتشرذم، ومن ثم لمزيد من الانقسام والاقتتال بين الفلسطينيين كما جرى في عام ٢٠٠٧.

[1] رجا، بسام، 2006: في ثقافة المقاومة.. المقاومة هي الأبقى تداعي خطاب العجز والمراهنة، مقال بتاريخ 2006/12/27.
[2] صادق ، عوني، 2008، مرجع سابق.

ثم جاءت الانتفاضة الثانية متوأمة مع الانتفاضة الأولى في سياق تاريخي للصراع، وأثبتت صحة خطاب المقاومة وعقم الحديث عن فرضيات السلام، وكانت الجماهير الشعبية تريد فرصة لإعلان يأسها من تلك المفاوضات، ولتعرب عن فشلها التام ورفض الاستمرار فيها، حيث تأكد أنه من العبث التفاوض في ظل موازين مختلة وغير متكافئة وخصوصا مع عدو كالعدو الصهيوني، كما تأكد أنه لا بد قبل الدخول في مفاوضات من تعديل موازين القوى، وإلا ستكون المفاوضات ليس أكثر من إملاء شروط الطرف الأقوى في المفاوضات. وفي وجود عرفات، كان أبو مازن قد بدأ اتهام المقاومة بما سماه "عسكرة الانتفاضة" لينتهي بعد غياب عرفات إلى وصف عمليات المقاومة بأنها "قذرة وحقيرة"، وأن صواريخها "عبثية"، ليصل إلى الإعلان رسميا عن عدم وجود حاجة أو ضرورة للمقاومة المسلحة، بل اعتبرها عاملا "يخرب العملية السياسية وعملية السلام"، ويعرقل الوصول إلى الحقوق الوطنية التي وعده بوش بها.

التراجع الثاني بدا بالظهور بعد حصول الانقسام الفسطيني

بعد فوز حركة حماس في الانتخابات التشريعية بداية 2006 ، قامت بتشكيل الحكومة العاشرة بمفردها بعد رفض فتح وبقية الفصائل المشاركة معها في حكومة وحدة وطنية. وهنا بدأ الخلاف بين الحركتين يزداد ويتعاظم وزادت حدته بعد رفض حماس شروط الرباعية الدولية (أمريكا، روسيا، الاتحاد الاوروبي، ومجلس الأمن) والتي تمثلت بالاعتراف بحق اسرائيل في الوجود، ونبذ العنف والارهاب والتخلي عن سلاحها، الاعتراف بالاتفاقيات الموقعة بين السلطة واسرائيل. عدم رضوخ حماس لشروط الرباعية دفع المجتمع الدولي إلى محاصرة حكومة حماس ورفض التعامل معها. في ثلك الأثناء ما زالت حركة فتح تُمسك بمؤسسة الرئاسة ومنظمة التحرير والأجهزة الأمنية، ما سهّل عليها حث عدد كبير من الموظفين وقيادات مؤسسات السلطة المدنيين منهم والعسكرين المحسوبين عليها على عدم التعاون مع حكومة حماس. وكردّ فعل على الحصار الخارجي والداخلي لحكومة حماس وعلى قدرتها على تنفيذ قرارت المسؤولين فيها، قامت الحركة بتشكيل قوة أمنية سميت في حينه "القوة التنفيذية" والتي تكونت بالاساس من عناصر حماس. تلك القوة الى جانب جناحها العسكري "كتائب القسام" مكّن الحركة من السيطرة على قطاع غزة في صيف ٢٠٠٧ ، الأمر الذي ترتب عليه انقسام سياسي، نتج عنه انقسام مادي جغرافي بين شطري الوطن، وأوجد نظامين سياسيين متباينين في الضفة الغربية وقطاع غزة، وتداخلت في نطاقه، ليس السياسة والأيديولوجيا فقط، وإنما أيضاً المصالح والأجندات الأمنية والاقتصادية المحلية والخارجية، في إطار السعي للتحرر والاستقلال.

ومنذ ذلك التاريخ اتسمت العلاقة بين الحركتين بنديّة حادة حَكَمها مبدأ المعادلة الصفرية، في ظل تآكل شرعيات الحكم لدى الطرفين، وضعف الموارد المالية، وانشغال حماس بتوفير متطلبات الحياة اليومية لمواطني القطاع، وتارجع الاهتمام بالقضايا المصيرية كالقدس والعودة، وانحسار مكانة القضية الفلسطينية. كل هذا أضعف من ثقة الفلسطيني بقدرة حماس (التي تمثل رأس حربة المقاومة) على المزاوجة بين المقاومة والحكم.. بين السلطة والثورة في آن واحد، فان كانت عاجزة عن توفير أدنى متطلبات الحياة من كهرباء ومعابر وفرص عمل، فكيف لها أن تحدث اختراقاً كبيرا في معادلة الصراع مع الصهاينة. وهذا أيضا طرح سؤالا مهما لدى المواطن: كيف يمكن للمقاومة أن تكون مجدية وتحقق أهدافها في ظل انقسام عميق وحالة تشظي بين شطري الوطن.. المستفيد الأول منه إسرائيل؟

مركز غزة للدراسات والاستراتيجيات
Center GAZA For Studies & Strategies

لماذا تراجعت ثقافة المقاومة ؟؟

وعلى الرغم من فشل خيار التسوية في تحقيق الأهداف الرئيسية التي وعد بها، والتي من أهمها أقامة الدولة المستقلة، إلا ان الانطباع السائد في أوساط المتابعين للشأن الفلسطيني وخصوصا غير الحزبيين منهم يشير إلى إن هناك تراجعا ملموسا في ثقافة المقاومة في السنوات الأخيرة. وفي بحثنا لأسباب هذا التراجع رصدنا مجموعة أسباب، من أهمها:

1. استمرار حالة الانقسام الفلسطيني، وفشل اتفاقيات المصالحة المتتالية بين حركتي فتح وحماس، أدى كل هذا الى تشوهات في ثقافة المقاومة وغياب الفهم الصحيح لها. كما أن استمرار الانقسام أدى الى نفور بعض الشباب عن العمل الحزبي، وأفرز بيئة جديدة عزلت المقاومة جزئياً عن حاضنتها الشعبية، فوصل الأمر في مرحلة معينة إلى اقتصار العمل المقاوم على فئات محدودة من النشطاء وأهالي الأسرى والشهداء خصوصا في الضفة الغربية. والملاحظ أن مبادرات المصالحة بصيغها المختلفة هي صيغ لإعادة إنتاج الانقسام تقوم على تقاسم السيطرة والنفوذ بين حركتي فتح وحماس، ما يَحُد من فرص نجاح هذه المبادرات لإنهاء الانقسام، وهو ما يعني أن إنهاء الانقسام يقتضي الاحتكام إلى قواعد مختلفة، تستند إلى تعاقد اجتماعي سياسي، ينبثق منه توافق وطني على أساسيات المسألة الوطنية وخطوطها العريضة[1]. علاوة على تشكيك بعض النخب السياسية من كتّاب ومثقفين بجدوى المقاومة في ظل انقسام يضفي بظلاله على كل مناح الحياة.
2. غياب الاستراتيجية، فالملاحظ في العقد الأخير أن هناك تعثر لمشروع المقاومة، وأنها أصبحت تندلع كردود أفعال على ممارسات الاحتلال الصهيوني، وليست كاستراتيجية منظمة طويلة الأمد، وكفعل يومي مستدام لا يتوقف سواء بالسلاح أو بالكلمة أو بالفن أو بأي وسيلة أخرى، وذلك لاجبار العدو على الاستجابة لمطالبها. فتختلف قوة المقاومة -سواء أكانت سياسية أو هبات شعبية- بحسب قوة المثير. ففي فترات معينة (ما قبل انتفاضة القدس في اكتوبر 2015، وبعدها بعام تقريبا) اقتصرت المقاومة في الضفة الغربية على بعض الفعاليات المرتبطة بالجدار العازل، أو ردود فعل مؤقتة على اعتداءات المستوطنين المتكررة أو هبات لنصرة المسجد الأقصى. أما في قطاع غزة فأصبحت عمليات المقاومه شبه "موسميه"، والعدو الصهيوني هو الذي يحدد موعدها في الغالب.
3. ازدياد وطأة الحصار على قطاع غزة وخصوصا بعد انقلاب مصر في يوليو 2013. الحصار الذي فرضته إسرائيل منذ عام 2006 أدى إلى تراجع واضح في الحالة الاقتصادية والمعيشية وارتفاع نسب البطالة، حيث بلغ متوسط البطالة 45% خلال عام 2015 [2]، وهو أعلى مستوى للبطالة في العالم، وتزيد نسبة البطالة بين الشباب عن 60%. وكذلك تولد عن الحصار نتائج مدمرة للقطاع على المستوى الإنساني. وبعد العام 2013 تراكمت أزمات القطاع بشكل كبير وعلى رأسها أزمة الكهرباء والمعابر والرواتب. كل هذا أضعف من التفاف الجماهير حول مبدأ المقاومة، وجعلت جزء من الجماهير ينشغل بمتطلبات الحياة الأساسية عن التفكير في الشأن السياسي عموما والاهتمام ومتابعة شأن المقاومة خصوصا.

[1] الزبيدي، باسم، 2016: الانقسام الفلسطيني ومتطلبات التخطي، المركز الفلسطيني لأبحاث السياسات والدراسات الإستراتيجية – مسارات، بتاريخ 06-04-2016.

[2] مركز الاحصاء الفلسطيني 2016.

4. ترسيخ سياسة التنسيق الأمني في الضفة الغربية وملاحقة المقاومين واعتقالهم من قبل أجهزة أمن السلطة الفلسطينية، ضرب صميم القيم الوطنية لهذه الأجهزة، وكرس حالة الانفصام بينها وبين الشعب الفلسطيني، وأثر بالسلب على الفعل المقاوم وتمدده في الضفة المحتلة، وكان من نتائجه منع كافة أنواع المقاومة في الضفة باستثناء الاحتجاجات ضدّ ممارسات الاحتلال مثل النشاطات الدورية ضدّ جدار الفصل، وأنشطة مقاطعة منتجات المستوطنات، وغيرها من الفعاليات الرمزية التي لا تؤخذ صفة الديمومة، وتتجنب قدر الإمكان الاحتكاك مع جنود الاحتلال.
5. نمو الطبقة الوسطى في الضفة الغربية خلال العقد الأخير، والتي تتشكل من رجال أعمال وأصحاب المصالح الخاصة، وتشمل أيضاً موظفي البنوك وشركات تأمين، الاتصالات، ومنظمات غير حكومية، وغير ذلك. وهذه الطبقة تسعى للحفاظ على الهدوء والاستقرار، لأن هذا يخدم مصالحها من جهتين: من ناحية اقتصادية وزيادة النشاط التجاري وحرية التنقل والحركة، ومن ناحية أمنية خشية من الاعتقال أو الملاحقة من أجهزة أمن السلطة. وهذه الطبقة بالمجمل تحاول الابتعاد عن السياسة خوفا على مواقعها، وعندما تقرر غير ذلك فإنها تندفع بحثا عن امتيازات أو تثبيتاً لمصالحها. وهذا أثر بدوره في المزاج الشعبي لأبناء تلك الطبقة، وأدى إلى تحولات تدريجية في تطلعاتهم من "شعب تحت الاحتلال" إلى مواطنين يسعون لتحقيق متطلبات "الرفاه"، بفعل السياسات التي اتبعتها حكومات سلام فياض في إطار مشروعها الذي يتلاقى بشكل أو بآخر مع خطط السلام الاقتصادي.
6. الحروب المتتالية على قطاع غزة وخصوصا حرب 2014 وحجم الدمار الكبير الذي أحدثه العدوان الصهيوني. حيث دمر الاحتلال الصهيوني ما يزيد عن 20 ألف وحدة سكنية خلال الحرب الأخيرة على قطاع غزة وأصبح هناك نحو 100 ألف من أبناء القطاع مشردين داخله ويتنقلون بين أطلال بيوتهم أو في الكرفانات أو في بيوت مستأجرة، بالاضاقة الى تضرر أكثر من 150 ألف وحدة سكنية بشكل جزئي خلال تلك الحرب. وقد تفاقمت معاناة تلك العائلات بسبب منع إسرائيل دخول مواد الإعمار وفرض قيود مشددة عليها. كما أن تباطؤ عجلة الإعمار، كل هذا خلق حالة رفض لردات فعل غير محسوبة من قبل المقاومة قد تؤدي الى حرب رابعة، وجعل الأولوية في إجهاض محاولات الاحتلال لاستدراج غزة لحرب جديدة لتجنيبها مأساة جديدة، وأن غزة بحاجة إلى إعمار وليس إلى مزيد من الدمار!.
7. عدم التوافق على برنامج وطني واضح الأهداف والآليات: حيث "فشلت الفصائل الفلسطينية جميعا في بلورة مشروع وطني موحد تتعاون في إنجازه قوى العمل الوطني المختلفة، فعلى مدى سنوات الانقسام الماضية كانت الجهود الفلسطينية مبعثرة ولا تصب في اتجاه واحد يعاكس سياسات الاحتلال". وبدى أن بعض الفصائل غير جادة في مقاومة الاحتلال، فبدل أن تكون عاملا مساعدا في توفير حاضنة للمقاومة كانت عامل إضعاف لها، مما مهد الطريق أمام أجهزة السلطة لضرب الحاضنة الأساسية لعمل الفصائل خصوصا الاسلامية منها عبر تقييد المساجد وإبعاد عناصر المقاومة عنها.
8. سوء تصرفات بعض القيادات المحسوبة على قيادة المقاومة، سواء في الشق السياسي أو العسكري، أدى الى زعزعة الثقة بتلك القيادات، ومن ثم اضعاف الارتباط بثقافة المقاومة والتفاف الجماهير حولها.
9. تكبيل المواطن الفلسطيني اقتصاديا ومعيشياً بسبب ارتباط السلطة بالاحتلال من الناحية الاقتصادية عبر العديد من الاتفاقات. فالسلطة الفلسطينية ومنذ نشأتها استوعبت في قطاعاتها الخدمية (المدنية والعسكرية) عشرات الآلاف من الموظفين في الضفة والقطاع. وهؤلاء أضحوا معتمدين بشكل رئيس في

معيشتهم على الرواتب التي تصلهم من مالية السلطة. ومن المعلوم أن ميزانية السلطة تعتمد بدورها على المنح والهبات الدولية من الدول المانحة، بالإضافة إلى عائدات الضرائب التي يتحكم بها الاحتلال، فأي منع أو تأخير من قبل الاحتلال في تحويل العائدات للسطلة يؤدي الى عدم انتظام الرواتب وبالتالي أضحى جزء كبير من الفلسطينيون مكبلين بأغلال اقتصادية تزيد من تقييد حركتهم الوطنية ومن دعمهم اللامحدود للمقاومة.

النتائج والتوصيات

المقاومة حق للشعب الفلسطيني، وعليه أن يقاوم بكافة السبل المتاحة والمتوفرة، وعليه أن يبتدع أساليب ووسائل مقاومة جديدة باستمرار من أجل استعادة حقوقه وتقرير مصيره. المقاومة حق، وهي شرعية ومشروعة، ويجب أن تبقى، وأن تلقى كافة أنواع الدعم والمساندة من قبل جميع فئات الشعب الفلسطيني في الداخل والخارج؛ ومن المطلوب تهيئة الشعب باستمرار من أجل أن يكون الرافد القوي والأمين والمستمر للمقاومة الفلسطينية، ويجب تحريض الأمة العربية والإسلامية للعمل من أجل انتزاع حقوق شعب فلسطين واستعادة المقدسات. لذا فإن المقاومة كانت وستبقى الخيار الاستراتيجي للشعب الفلسطيني، وهي الرد المناسب على جريمة الاحتلال، الذي لن يعترف بحقوق الشعب الفلسطينية إلا اذا شعر أنه وجوده مهددا وأن هناك جيلا لن تمحى من ذاكرته حق العودة من زال مستعدا للتضحية بكل شيء من أجل تحرير وطنه.

تعبر ثقافة المقاومة عن عبقرية الأمة، وتنوع مخزونها من بدائل وخيارات المقاومة والحراك، فمثلا منذ بداية المشروع الصهيوني الاستيطاني اتخذت مقاومة هذا المشروع أشكالا وتعبيرات متعددة: سياسية، واجتماعية، وأيديولوجية.. فتغير الأفكار، وتعدد التوجهات التي انخرطت في كفاح الأمة على الساحة الفلسطينية هي تعبيرات لحركة وطنية واحدة متجددة.

لا تنحصر ثقافة المقاومة في انتماء فكري أو أيديولوجي أو ديني أو حزبي بذاته، بل يضم معسكر المقاومة كل الشرفاء الذين ارتقى وعيهم إلى مستوى التحديات، وأدركوا البوصلة الحقيقية للمرحلة، وانتموا إلى روح الأمة وتطلعاتها نحو النهوض والتحرر والتنمية، بصرف النظر عن انتماءاتهم، أو خصوصياتهم، أو معتقداتهم، فمصادر الفكر المقاوم متعددة وليست أحادية.

مفهوم المقاومة مفهوم شامل لكل مكونات المجتمع المقاوم، وليس محصور في المقاومة المسلحة، فهناك المقاومة الفكرية والسياسية والاقتصادية والشعبية والسلمية والعسكرية.

التوصيات والمقترحات الإجرائية:

بناء على ما سبق نوصي بما يلي:

1. إن الانقسام الفلسطيني الفلسطيني أثر استراتيجيا وبالسلب على ركيزتي المشروع الوطني، وهما المقاومة والتسوية، ومن ناحية عملية لا تسوية مشرفة ولا مقاومة فاعلة مؤثرة في ظل الانقسام، وبالتالي لا فرص لإنجاز المشروع وطني في ظل الانقسام [1]. وفي المقابل فان المشروع الصهيوني الاستيطاني يتقدم ويزدهر في ظل تراجع المقاومة المسلحة وسيادة الانقسام والإحباط. وعليه فان استمرار الوضع الحالي من انقسام وتشرذم في المشروع الوطني ومناكفات حزبية يعني ان التراجع في ثقافة المقاومة سيستمر وسينتج حالة من تراجع

[1] أبراش، ابراهيم، 2012: الانقسام الفلسطيني وتأثيره على المشروع الوطني، وكالة سما الاخبارية، بتاريخ 2012/11/14.

كلي للمقاومة وللقضية الفلسطينية سياسيًا وإعلاميًا. لذا فإن انهاء الانقسام أولوية وعلاج واجب نحو الحفاظ على ثقافة المقاومة.

2. ثقافة المقاومة هي التي تحافظ على هوية الصراع بأبعاده الوطنية والقومية والدينية والحضارية، لذا ينبغي على الفصائل الفلسطينية جميعها وخصوصا تلك التي ما زالت تتبنى نهج المقاومة أن تعزز من هذه الثقافة بأكثر من وسيلة كالفن والأدب والتراث الشعبي والمسرح والمعارض والمهرجانات والكشافة والاحتفالات العامة في المناسبات الوطنية، وتسعى دوما الى عدم صبغ المقاومة بلون حزبي معين وانما اظهار وتعميق البعد الوطني فقط.
3. ولتعزيز ثقافة المقاومة لابد من تضافر جميع مؤسسات المجتمع ابتداء من الأسرة وانتهاء بالدولة، مرورا بكل مكونات المجتمع مثل الإعلام والتعليم بكل مستوياته والمساجد والمؤسسات المدنية والرسمية.
4. التثقيف الوطني للجيل الفلسطيني وهذا يستلزم نشر الوعي بأهداف المقاومة واستراتيجياتها، ورؤيتها من الأحداث المتجددة، لتضمن اصطفاف الجمهور الفلسطيني وراءها، والتحامها بها ليشكلوا درع حماية ومورد إمداد دائم لا ينضب، وحتى لا يكون التأييد الجماهيري تأييداً عاطفياً تخبو جذوته كلما ضعفت المقاومة، أو أصابتها المحن وضاقت بها السبل، فلابد من التربية على ثقافة المقاومة والعمل على بناء مناهج فلسطينية تؤصل لثقافة المقاومة، حتى تصبح قناعة ذاتية وانتماء وجدانياً وسلوكاً ميدانياً في يوميات الحياة العادية ومنعطفاتها المصيرية .[1]
5. احباط تلك المحاولات التي تسعى لربط عمليات المقاومة الفلسطينية المشروعة ضد جنود الاحتلال ومستوطنيه بالارهاب، من خلال الزج بحركات تكفيرية كالقاعدة وداعش واعتبارهم حركات مقاومة، وذلك من أجل تشويه صورة الفلسطينيين وتصويرهم وكأنهم إرهابيون والاساءة الى مقاومتهم.
6. على الجهات المسؤوله وعلى رأسها الحكومة الفلسطينية وفصائل المقاومة وعلى رأسها حماس أن تسعى لتوفر مقومات الصمود لابناء شعبنا الفلسطيني، لئلا يشعر المواطن بأن المقاومة أصبحت عبئا عليه وجعلته يفقد مقومات حياة كريمة بأدنى متطلبات العيش. وإن تآكل مقومات الصمود أوصلت الشعب الفلسطيني الى وضع اقتصادي متعثر وخصوصا في قطاع غزة، ولم تعد غالبية الأسر الفلسطينية قادرة على تحمل المزيد من الأعباء الضريبية والغلاء الفاحش في الأسعار في ظل محدودية الراتب الذي متوسطه لا يتعدى ألفين شيقل.
7. الاسراع في عملية اعادة الاعمار لمن هدمت منازلهم أو ممتلكاتهم في الحروب على قطاع غزة، مع تطبيق سياسة العدالة في التوزيع بعيدا عن الحزبية أوالمحاصصة، فلقد مرت سنوات على انتهاء الحرب الأخيرة والعديد من الأسر التي تلقت وعودا من الجهات المعنية بإعادة بناء بيتها ما زالت تنتظر دون أن ترى بصيص أمل لاعمار اعمار من تهدم من منزلها. والعمل من قبل الرئيس عباس وحركة حماس معا من اجل حشد تأييد دولي لرفع الحصار عن القطاع، والذي يعيق اعادة الاعمار من خلال منع دخول الأموال أو مواد البناء الاساسية.

[1] الجعب، نافذ، 2009: المتطلبات التربوية لتعزيز ثقافة المقاومة، وزارة الثقافة الفلسطينية، المؤتمر السنوي الأول للمؤسسات والمراكز الثقافية "نحو تعزيز ثقافة المقاومة"، 20-2009/07/21، غزة – فلسطين.

المراجع

1) حنفي، حسن، 2004: ثقافة المقاومة، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان.
2) ندوة " ثقافة الاختلاف"، عقدت في غزة برعاية المرصد الوطني للاتصال والاعلام، مارس 2008.
3) الجعب، نافذ، 2009: المتطلبات التربوية لتعزيز ثقافة المقاومة، وزارة الثقافة الفلسطينية، المؤتمر السنوي الأول للمؤسسات والمراكز الثقافية، "نحو تعزيز ثقافة المقاومة"، 20-2009/07/21، غزة – فلسطين.
4) أبو ديكار، أسامة، 2009: حرب غزة بين ثقافة المقاومة وثقافة الهزيمة، موقع دنيا الوطن، بتاريخ 07-03-2009.
5) السنوار، زكريا، 2009: أسس ثقافة المقاومة، بحث مقدم إلى مؤتمر نحو تعزيز ثقافة المقاومة، المنعقد في 10-2009/7/13م، وزارة الثقافة، غزة، فلسطين.
6) رضوان، أكرم، 2009: ثقافة المقاومة بين التقدم والتراجع، ورقة عمل مقدمة إلى مؤتمر نحو تعزيز ثقافة المقاومة والذي عقد بتاريخ 10-2009/7/13 ،وزارة الثقافة، غزة، فلسطين.
7) شلهوب، فرج، 2010: المقاومة الفلسطينية مراحل التطور وافاق المستقبل، مجلة البيان.
8) الأحوازي، معمر، 2010: قراءة نقدية في ثقافة المقاومة وثقافة الاستسلام الأحوازية، الموقع الرسمي لـ الجبهة الديمقراطية الشعبية للشعب العربي الأحوازي، http://www.alahwaz.eu/ghara3a.htm.
9) أبراش، ابراهيم، 2012: الانقسام الفلسطيني وتأثيره على المشروع الوطني، وكالة سما الاخبارية، بتاريخ 2012/11/14.
10) اشتيوي، بثينة، 2015: لماذا تضعف المقاومة الفلسطينية في الضفة المحتلة؟، موقع ساسة بوست بتاريخ 2015-08-17.
11) الزبيدي، باسم، 2016: الانقسام الفلسطيني ومتطلبات التخطي، المركز الفلسطيني لأبحاث السياسات والدراسات الإستراتيجية – مسارات، بتاريخ 06-04-2016.
12) مجاهد، نور، 2016: السياقات الاجتماعية - السياسية في الاراضي الفلسطينية المحتلة عام 1967م وأثرها في بناء نموذج فلسطيني في العدالة الانتقالية، اطروحة ماجستير، جامعة النجاح، فلسطي.
13) أبوالخير، رامي، 2016: دور التربية الأمنية في تعزيز ثقافة المقاومة لدى طلبة جامعات محافظات غزة وسبل تفعيله، أطروحة ماجستير، كلية التربية، جامعة الأزهر، غزة، فلسطين.
14) الجعب، نافذ، 2017: دور التربية في تعزيز ثقافة المقاومة في المجتمع الفلسطيني، مجلة جامعة الأقصى (سلسلة العلوم الإنسانية) المجلد الحادي والعشرون، العدد الأول، ص355-379.
15) مركز الاحصاء الفلسطيني، تقرير 2016.

بحمد الله